ذكرى المولد النبوي

٣

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ دَارِهِ إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ خَرَجَا مُتَوَدِّعَيْنِ مِنْ خَوْخَةٍ (١) فِيهَا وَاسْتَخْفَيَا فِي الْغَارِ الْمَعْرُوفِ بِغَارِ ثَوْرٍ (٢)؛ وَكَانَا قَدِ اسْتَأْجَرَا دَلِيلًا مَاهِرًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيَرْحَلَ بِهِمَا، وَأَعْطَيَاهُ رَاحِلَتَيْهِمَا وَأَمَّنَاهُ عَلَى سِرِّهِمَا (٣) وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَكَتَمَ أَمْرَهُمَا وَوَافَاهُمَا فِي الْمِيعَادِ، وَلَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِخُرُوجِهِمَا، خَرَجَتْ بِالْقَافَةِ فِي طَلَبِهِمَا. (٤) حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَوْا إِلَى بَابِ الْغَارِ، صَرَفَ اللهُ عَنْهُ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ؟ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » وَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ جَاءَ الدَّلِيلُ فَرَحَلَ بِهِمَا، وَأَرْدَفَ أَبُو بَكْرٍ مَوْلَاهُ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَهَاجَرَ مَعَهُمَا، وَكَانَتْ نَارُ الطَّلَبِ قَدْ خَمَدَتْ عَنْهُمَا، وَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ

---

*) تابع لما نشر في الجزء الثامن ص ٤٧٣

(١) الخوخة الكوة النافذة والباب الصغير في الباب الكبير

(٢) ثور اسم جبل معروف من جبال مكة والغار لا يزال فيه الى اليوم

(٣) فيه من العبرة ما كان عند العرب من الامانة والصدق والوفاء

(٤) القافة جمع قائف وهو الذي يعرف الآثار فاذا رأى أثر الاقدام أو الاخفاف أو الحوافر في الارض استدل بها على عددها ووجهة سيرها

لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهَا دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ حِفْظِ اللهِ وَإِكْرَامِهِ لَهُمَا ،

وَلَمَّا بَلَغَ الْأَنْصَارَ خُرُوجُهُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، كَانُوا يَخْرُجُونَ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ يَنْتَظِرُونَهُ فِي الْحَرَّةِ ، (١) وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدِّيَارِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَغْلِبَهُمُ الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ (٢) حَتَّى وَافَاهُمْ بِقُبَاءَ (٣) يَوْمَ الِاثْنَيْنِ ثَامِنَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فَتَلَقَّوْهُ بِالْإِكْرَامِ ، وَأَقَامَ فِيهَا مُدَّةَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ نُزُولُهُ فِي بَنِي عَمْرِو ابْنِ عَوْفٍ ، وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدَهَا الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِنْدَ دُخُولِ الشَّمْسِ فِي بُرْجِ الْمِيزَانِ ، وَهُوَ أَوَّلُ الِاعْتِدَالِ الْخَرِيفِيِّ فِي الزَّمَانِ ، فَكَانَ ذَلِكَ رَمْزًا لَمَا فِي شَرِيعَتِهِ مِنَ الِاعْتِدَالِ ، وَكَوْنِهَا آخِرَ الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَبْلُغُ بِهَا الدِّينُ غَايَةَ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، وَقَدْ أَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فَجَمَّعَ بِهِمْ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِي ، ثُمَّ رَكِبَ فَأَخَذُوا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ : هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْمَنَعَةِ وَالسِّلَاحِ (٤) ، فَقَالَ « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، وَكُلَّمَا مَرَّتْ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ رَغِبُوا إِلَيْهِ فِي النُّزُولِ

(١) الحرة موضع بظاهر المدينة من جهة مكة فيه حجارة سود

(٢) أي عند ما يقرب وقت الظهر و يتقلص ظلال الجدر حتى كأن الشمس تغالب المستظل بها عليها (٣) موضع بظاهر المدينة فيه قرية واصله اسم لبئر كانت هنالك فهو مؤنث ممنوع من الصرف و يصرف بمعنى الموضع ، و يقصر أيضا

(٤) الخطام الحبل الذي يوضع في خطام الراحلة أي أنفها لتقاد به و : هلم الخ حكاية لقولهم أي قائلين هلم أي أقبل وتعال الى قوتي الكثرة والاستعداد

عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» وَمَا زَالَتْ تَمُرُّ بِدَارٍ بَعْدَ دَارٍ، إِلَى أَنْ بَرَكَتْ فِي مَوْضِعِ مَسْجِدِهِ الْيَوْمَ مِنْ دُورِ أَخْوَالِهِ بَنِي النَّجَّارِ،[1] فَبَادَرَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ إِلَى رَحْلِهِ فَأَدْخَلَهُ فِي بَيْتِهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ «الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ»؛ وَأَقَامَ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ حَتَّى بَنَى حُجْرَتَهُ وَمَسْجِدَهُ، وَاسْتَحْضَرَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ أَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ،[2] وَلَمْ يَفْرَحِ الْأَنْصَارُ بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِقُدُومِهِ ﷺ، وَمِثْلُهُ عَوْدَتُهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ[3] وَأَيُّ شَرَفٍ وَفَخْرٍ وَسَعَادَةٍ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ، أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِي افْتَخَرَ بِهَا شَاعِرُهُمْ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً　　يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيبًا مُوَاتِيَا[4]

وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ　　فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا[5]

---

(١) هم قبيلة من الانصار وهم أخواله (ص) من جهة جده عبد المطلب فان أمه سلمى بنت عمرو منهم (٢) أرسل (ص) زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم فاحضرا فاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجه التي تزوجها بعد خديجة وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن. وأما بنته زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج. وقد خرج مع هؤلاء عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان (٣) هو فتح مكة

(٤) ثوى أقام والحجة بالكسر السنة والضم ما بين ٣ الى ٩ أي أقام ثلاث عشرة سنة بمكة يذكر و يعظ بالدعوة الى الله في أثنائها وانما دعا في عشر منها (٥) المواسم مجامع الحج. فلم ير من يؤويه أي يجعل له مأوى أي منزلا يامن فيه على نفسه ولم ير داعيا الى ذلك أو الى الله بمساعدته ونصره

فَلَمَّا أَتَانَا وَٱسْتَقَرَّتْ بِهِ النَّوَى وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيْبَةَ رَاضِيَا (١)
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظَلَامَةَ ظَالِمٍ بَعِيدٍ وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا (٢)
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حِلِّ مَالِنَا وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتَّآسِيَا (٣)
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا (٤)
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ أَصْبَحَ هَادِيَا (٥)

انصرافه وسيرته بعد الهجرة مع المؤمنين

وحاله مع أهل الكتاب والمشركين

كَانَ ﷺ أَكْرَمَ الْخَلْقِ أَخْلَاقًا، وَأَعْلَاهُمْ فَضَائِلَ وَآدَابًا، امْتَازَ بِذٰلِكَ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ يُدْرَكُ كُنْهُهُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ، بِقَوْلِهِ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، كَانَ جَامِعًا بَيْنَ اللُّطْفِ وَالتَّوَاضُعِ وَالدَّمَاثَةِ، وَبَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْوَقَارِ وَالْمَهَابَةِ، مَنْ رَآهُ

(١) النوى وجهة المسافر التي ينويها بسفره. وطيبة المدينة. ويروى البيت في سيرة ابن هشام هكذا: فلما أتانا أظهر الله دينه فاصبح مسرورا بطيبة راضيا
(٢) الباغي المعتدي ويروى البيت هكذا
فاصبح لا يخشى من الناس واحدا قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
(٣) الوغى الحرب والتآسي مثل التعازي ما يتسلى به المرء عن المكاره
(٤) أي نعادي الذي عاداه من جميع الناس وان كان من قبل حبيباً لنا لا نؤثر عليه أحدا
(٥) يروى هذا البيت بالفاظ أخرى في سيرة ابن هشام وفيها أبيات أخرى ايضا

بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ،(١) وَجَامِعًا بَيْنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحَيَاءِ، وَبَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ وَالْمَضَاءِ، فَكَانَ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى أَثْبَتَ النَّاسِ، وَكَانُوا يَلُوذُونَ بِهِ إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ(٢)، حَتَّى إِنَّهُ ثَبَتَ وَحْدَهُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ غَيْرَ أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ(٣)، وَإِنَّمَا كَانَ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ دِفَاعًا، وَيُرْشِدُ الْمُقَاتِلِينَ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّثْبِيتِ إِرْشَادًا، وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُحَابِي فِي الْحَقِّ عَشِيرَتَهُ وَلَا أَبْنَاءَ جِنْسِهِ، وَكَانَ عَلَى حِلْمِهِ أَوْسَعَ، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَكَانَ أَجْوَدَ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، وَالسُّحُبِ الْمُنْهَمِلَةِ، وَكَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ صَبْرًا، وَأَحْسَنَهُمْ لِلهِ وَلِلنَّاسِ شُكْرًا،(٤) وَكَانَ

---

(١) البديهة الفجاءة أي من رآه مفاجاة من غير سابق معرفة خافه او وقره واجله لما يتجلى في شمائله من الروعة والهيبة ، ومن خالطه اي عاشره مخالطة معرفة احبه لحسن خلقه وكمال آدابه وشدة رحمته وعنايته بامر معاشره . وهذا الكلام من وصف علي رضي الله عنه له صلى الله عليه وسلم (٢) البأس بالهمز ويخفف هنا للتناسب وهو الشدة والمكروه والمراد هنا الحرب ونحوها من المكاره الشديدة (٣) كان أبي من رءوس المشركين وصناديدهم وكان يعلف فرساً له بمكة اسمه العود ويقول اقتل عليه محمدا فبلغ النبي «ص» خبره فقال « بل انا اقتله ان شاء الله » فلما كان يوم احد ونكب المسلمون وانكشفوا عن النبي «ص» اقبل ابي مقنعاً بالحديد لايرى من بدنه شيء وجعل يقول اين هذا الذي يزعم انه نبي فليبرز لي فانه ان كان نبيا قتلني ، فلما دنا من النبي «ص» اخذ النبي حربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها طعنة جاءت في ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة التي على الراس فكر الخبيث منهزما ومات من ذلك الجرح في طريقهم الى مكة قيل بسرف وقيل برابغ (٤) قال «ص» «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» رواه احمد والترمذي عن ابي سعيد

يُحِبُّ ٱلْيُسْرَ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَيَكْرَهُ ٱلْعُسْرَ وَيَنْهَى عَنْهُ [١] ، وَيَأْكُلُ مِنْ ٱلطَّعَامِ مَا وَجَدَ، لَا يَأْبَى ٱلْمُسْتَلَذَّ مِنْهُ نُسُكًا، وَلَا يَتَحَرَّاهُ تَنَعُّمًا وَتَرَفًا، وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَعْتَنِي بِأَمْرِ ٱلْمَاءِ [٢] ، وَيُحِبُّ ٱلطِّيبَ وَٱلنِّسَاءَ، وَكَانَ يُكْثِرُ ٱلْوَصِيَّةَ بِهِنَّ وَبِٱلْيَتَامَى وَٱلْأَرِقَّاءِ، لِيَمْحُوَ مِنْ أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ ٱحْتِقَارَ ٱلضُّعَفَاءِ،

كَانَ ﷺ يُرَبِّي ٱلْمُؤْمِنِينَ بِٱلْقُرْآنِ ، وَبِمَا آتَاهُ ٱللهُ مِنَ ٱلْخُلُقِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْعِرْفَانِ ، فَآخَى بَيْنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَقَاسَمُونَ ٱلْمَالَ وَٱلْعَقَارَ ، وَأَلَّفَ ٱللهُ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِ ٱلْأَوْسِ وَٱلْخَزْرَجِ فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَتِهِ تَعَالَى إِخْوَانًا ، وَكَانُوا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَعْدَاءً لَا يَأْلُو أَحَدُهُمَا ٱلْآخَرَ بَغْيًا وَعُدْوَانًا ، وَكَانَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَهُمْ فِي ٱلْإِقْبَالِ وَٱلْبِشْرِ ، وَيُوَقِّرُ كَبِيرَهُمْ وَيَرْحَمُ صَغِيرَهُمْ ، وَيُكَرِّمُ فَقِيرَهُمْ ، وَيَعُودُ مَرِيضَهُمْ ، وَيُشَيِّعُ مَيِّتَهُمْ ، وَيَقْبَلُ هَدِيَّتَهُمْ ، وَيُجِيبُ دَعْوَتَهُمْ ، وَيَكُونُ مَعَهُمْ كَأَحَدِهِمْ

فَأَمَّا ٱلْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ، ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي تِلْكَ ٱلرِّحَابِ ، فَقَدْ وَادَعَهُمْ وَأَقَرَّهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَأَمَّنَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، عَلَى أَنْ لَا يُحَارِبُوهُ ، وَلَا يُظَاهِرُوا وَلَا يُوَالُوا [٣] عَدُوَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ لَهُمُ

---

(١) من وصاياه « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » رواه البخاري ومسلم وغيرهما (٢) كان احب الشراب اليه الحلو البارد كما في حديث عائشة في الشمائل وكان يستعذب له الماء من بيوت السقيا كما روى ابو داود والسقيا بالضم عين على بعد يوم من المدينة او اكثر (٣) أي لا يعاونوا ولا يناصروا

النَّصْرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَيُنْفِقُونَ مَعَهُمْ مَادَامُوا مُحَارِبِينَ، وَأَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ نَقَضُوا عَهْدَهُ ، وَظَاهَرُوا عَلَيْهِ عَدُوَّهُ ،

وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَاشْتَدَّتْ عَدَاوَتُهُمْ لَهُ ، وَكَانُوا حَرْبًا لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ ، فَلَمْ يَشْتَفُوا بِإِخْرَاجِهِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ لِمَوَالِيهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، لِأَجْلِ إِرْجَاعِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ، إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، حَتَّى صَارَحُوهُمُ الْبَغْيَ وَالْعُدْوَانَ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِ أَمَانٌ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَكَانٍ ، إِلَّا أَنْ يَمْنَعَهُ أَحَدُ الْأَقْوَامِ ، أَوْ يَصُدَّهُمْ عَنْهُ الشَّهْرُ الْحَرَامُ أَوِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ، عَلَى أَنَّ قُرَيْشًا صَدَّتْهُمْ عَنِ الْبَيْتِ ، بَعْدَ أَنْ قَلَّدُوا الْهَدْيَ وَأَحْرَمُوا بِالْعُمْرَةِ سَنَةَ سِتٍّ[1] ، حَتَّى صَالَحَهُمْ ﷺ فِي الْحُدَيْبِيَةِ[2] ، — وَالْإِسْلَامُ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَعَةِ وَالْقُوَّةِ[3] — ، عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْعَامَ ، وَيُخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ أَتَاهُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ وَلَوْ بِقَصْدِ الْإِسْلَامِ ،

(١) الاحرام وتقليد الهدي أي ما يهدى الى الحرم من الانعام دليل على عدم ارادة القتال (٢) الحديبية بالتخفيف كدويهية ويشدده أكثر المحدثين برسمي باسمها الموضع الذي حولها (وقيل واد هناك) وهو على نحو مرحلة من مكة من أسفلها عن طريق جدة . وكان هناك قرية، قيل هي في الحل وقيل في الحرم وقيل بعضها في الحل و بعضها في الحرم وهو أبعده عن مكة

(٣) كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ١٤٠٠ رجل أو ١٥٠٠

وَلَا يَرُدُّوا عَلَيْهِ مَنْ أَتَاهُم مِن أَصْحَابِهِ الكِرَام، وَكَانَ ﷺ قَدْ رَأَى فِي المَنَام، أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ المَسْجِدَ الحَرَام، فَظَنَّ المُسْلِمُونَ أَنَّ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَة، وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الأَسْتِيَاءُ مِنَ الصُّلْحِ حَتَّى خِيفَتْ عَلَيْهِمُ الفِتْنَة، (١) لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَة، وَعَجَّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا وَعَدَهُمْ ثُمَّ مِنَ المَغَانِمِ الكَثِيرَة، (٢) وَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى إِيثَارِهِ ﷺ لِلسَّلَامْ، وَمَا كَانَتْ حُرُوبُهُ إِلَّا دِفَاعًا وَتَأْمِينًا لِدَعْوَةِ الإِسْلَامْ، وَكَانَ أَكْبَرُ فَوَائِدِ ذَلِكَ الصُّلْحِ اخْتِلَاطُ المُسْلِمِينَ بِالمُشْرِكِينَ، وَإِسْمَاعُهُمُ القُرْآنَ وَتَبْلِيغُهُمْ حَقِيقَةَ الدِّينِ، وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ لِتَبْلِيغِ المُلُوكِ المُجَاوِرِين، (٣) فَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِيهِ آمِنِينَ مُقْتَنِعِين، وَأَظْهَرَ الإِسْلَامَ فِي هَذِهِ البُدْنَة، مَنْ كَانَ يُخْفِيهِ بَيْنَ المُشْرِكِينَ خَوْفَ الفِتْنَة، وَحَسْبُكَ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ سُورَةَ الفَتْح، فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ هَذَا الصُّلْح، مُبَيِّنَةً مَا فِيهِ مِنَ الحِكَمِ وَالمَصَالِح، وَمُشْتَمِلَةً عَلَى أَخْبَارِ الغَيْبِ وَالوَعْدِ بِالنَّصْرِ وَالمَغَانِم، فَسَمَّاهُ فَتْحًا مُبِينًا، وَأَعْقَبَهُ كَمَا وَعَدَ نَصْرًا عَزِيزًا، إِذْ كَانَ تَمْهِيدًا لِفَتْحِ

(١) لما صالح (ص) المشركين أمر المؤمنين بالتحلل من عمرتهم فلم يبادروا الى الامتثال لما عراهم من ذهول الحزن، فدخل (ص) على أم سلمة وقال لها «هلك المسلمون» وذكر لها ما كان فأشارت عليه بأن يخرج ولا يكلم أحدا حتى ينحر هديه ويحلق رأسه، فخرج ففعل ذلك فتبعوه فنحروا وصار يحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا من الغم

(٢) عجل لهم فتح خيبر فقد عاد (ص) من الحديبية في ذي الحجة فاقام في المدينة زهاء عشرين ليلة ثم خرج الى خيبر ففتحها في المحرم أول سنة سبع

(٣) ملوك جزيرة العرب والشام ومصر وفارس

مَكَّةَ ، الَّذِي أَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ ، وَازْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ إِيمَانًا ، وَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ،

وَكَانَ فَتْحُ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ ، وَفِي سَنَةِ عَشْرٍ حَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ ، الَّتِي هَدَمَ فِيهَا قَوَاعِدَ الشِّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَّمَ الْأُلُوفَ أَحْكَامَ الْمَنَاسِكِ [1] ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْهُمُ الْغَائِبَ ، وَأَشْهَدَ اللهَ تَعَالَى وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّهُ بَلَّغَ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَهُ تَبْيِينًا ، وَأَنْزَلَ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي مَسَاءِ عَرَفَةَ (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

وَكَانَ ﷺ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَّةَ بَعْدَ بَدْءِ التَّبْلِيغِ عَشْرَ سِنِينَ ، يَدْعُو إِلَى أُصُولِ الْإِيمَانِ وَكُلِّيَّاتِ الدِّينِ ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِتَطْهِيرِهَا مِنْ أَدْرَانِ الرَّذَائِلِ ، وَتَحْلِيَتِهَا بِأَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَعَقَائِلِ الْفَضَائِلِ ، وَاسْتِعْمَالِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى مِنْ بَدَنِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ ، وَسَمَاوِيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ ، فِيمَا تَظْهَرُ بِهِ حِكْمَتُهُ وَتُشَاهَدُ آيَاتُهُ فِي الْخَلْقِ ، وَتَتَّسِعُ بِهَا الْعُلُومُ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الْحَقُّ وَتَكْثُرُ مَوَارِدُ الرِّزْقِ ، صَابِرًا مَعَ السَّابِقِينَ مِنَ

(١) المناسك أحكام الحج ، وقد اختلف في عدد من حج مع الرسول (ص) حجة الوداع من ٤٠ ألفا الى مئة وعشرين ألفا . وسبب هذا الاختلاف انه خرج من المدينة بجماهير المسلمين فيها وفيما حولها وكان الناس ينضمون اليهم في الطريق عدا من حج من سائر بلاد العرب

الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى الِاضْطِهَادِ وَالْأَذَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ دَخَلَ الْإِسْلَامُ بِالْهِجْرَةِ فِي عَهْدِ الْحُرِّيَّةِ، وَتَكَوَّنَتْ لَهُ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ، وَجَاءَ الْوَحْيُ فِيهِ مُفَصَّلًا لِمَا أُجْمِلَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَبَيَانَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ جَمِيعَ فُرُوعِ الْعِبَادَاتِ. وَكُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ النُّصُوصِ وَالْقَوَاعِدِ لِلسِّيَاسَةِ وَفُرُوعِ الْمُعَامَلَاتِ، فَبِذَلِكَ كُلِّهِ أَكْمَلَ اللهُ الدِّينَ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ تَرَبَّى عَلَى ذَلِكَ الْأُلُوفُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَنَشَرُوا هَذَا الدِّينَ الْقَوِيمَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، فَاقُوا أُمَمَ الْحَضَارَةِ وَالْأَدْيَانِ الْقَدِيمَةِ، مِنَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسِّيرَةِ الْقَوِيمَةِ، مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ بِأَعْيُنِهِمْ، وَلَا رَوَوْا نَظِيرَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ التَّشْرِيعِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، كَمُدَّةِ التَّبْلِيغِ بَعْدَ الْبِعْثَةِ (١) فَبَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ (٢) قَبَضَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ نَبِيَّهُ الْمُصْطَفَى، وَرَسُولَهُ الْمُجْتَبَى، وَرَفَعَ رُوحَهُ الطَّاهِرَةَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فَتُوُفِّيَ ﷺ تَارِكًا لِلْأُمَّةِ مَا إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ يَضِلُّوا مِنْ بَعْدِهِ، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتَهُ فِي تَبْيِينِهِ وَعِتْرَتَهُ الْعَامِلِينَ بِهِمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، (٣)

(١) أي عشر سنين (٢) توفي (ص) يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة احدى عشرة وكذلك كانت ولادته وبعثته وهجرته في يوم الاثنين. وفي ذلك اشارة الى ان الايمان به يلي الايمان بالله تعالى، والشهادتان شاهدتان على ذلك (٣) روى مسلم في صحيحه من طرق عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله (ص) خطيبا بماء يدعى خمّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر ثم قال «أما بعد الا أيها الناس فانما أنا بشر يوشك ان يأتي رسول ربي فاجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به — فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال — وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، —

وَكَذَا خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ، (١) وَعُلَمَاءُ أَصْحَابِهِ الْعَامِلُونَ (٢)، مُؤَسِّسًا

= أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في اهل بيتي » وفسر زيد أهل بيته بمن حرم عليهم الصدقة قال وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس . ويقول آخرون هم علي وذريته من فاطمة عليهم السلام . ولعمري انهم كانوا أحفظ الناس لهديه حتى عند ظهور البدع وفتن الدنيا ولا يخلو عصر من طائفة منهم أو أفراد من الهداة المصلحين ، وان فتن الكثيرون منهم بغلاة المحبين ، فكانت فتنتهم لهم أعم وأدوم من فتنة الامراء الظالمين، اذ كان من أثرها في ذريتهم أن ترك اكثرهم العلم والاعمال النافعة استغناء عنهما بشرف النسب، غافلين عن قول جدهم علي المرتضى كرم الله وجهه: قيمة كل امرئ ما يحسنه . ولله در بيت الامامة في اليمن منهم فانهم لم يتركوا الاجتهاد في علوم الدين والمحافظة على الامامة الى اليوم. والثقل بالضم وبفتحتين الشيء النفيس المصون وكذا متاع المسافر وحشمه . قال النووي قال العلماء سميا ثقلين لعظمهما وكبير شانهما وقيل لثقل العمل بهما . وروى الترمذي من حديث جابر قال رأيت رسول الله (ص) في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول « اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي — أحدهما أعظم من الاخر — كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » وروى احمد والطبراني من حديث زيد بن ثابت مرفوعا « اني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود بين السماء والارض وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » وعلم عليه السيوطي بالصحة. وروي نحوه من حديث أبي سعيد وحذيفة بن اسيد ورواته كثيرون وطرقه متعددة ذكرنا أصحها. وروي حديث بمعناه عن أبي هريرة وفيه لفظ السنة بدل العترة ومعناه صحيح ولا معارضة بينه وبين الآخر الذي هو أصح منه رواية. ويؤيده حديث مرسل في الموطأ

(١) ورد في مناقب الخلفاء الاربعة أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها وورد لفظ الخلفاء الراشدين في حديث العرباض بن سارية عند أبي داود والترمذي « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » الخ

(٢) ورد في فضل أصحابه «ص» أحاديث كثيرة منها في صحيح مسلم انهم أمنة لأمته فاذا ذهبوا أتاهم ما يوعدون . ومعنى أمنة حفظة على الدين ، ومنها الحديث الصحيح « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الخ رواه الشيخان وغيرهما . والقرن العصر طال أو قصر

لَهُمْ أُمَّةً عَظِيمَةً ، وَدَوْلَةً عَادِلَةً رَحِيمَةً ، وَحُكُومَةً شُورَوِيَّةً حَكِيمَةً ، قُيِّدَتْ فِيهَا سُلْطَةُ الْفَرْدِ ، بِالشَّرِيعَةِ الْعَادِلَةِ وَسَيْطَرَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ،(١) مُبَشِّرًا بِأَنَّ مُلْكَهَا سَيَعُمُّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ ، وَيَنْتَظِمُ مُلْكَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَنَّهُ يَظَلُّ عَزِيزًا مَا أَقَامُوا الْحَقَّ وَاعْتَصَمُوا بِالْعَدْلِ ، فَإِذَا وَسَّدُوا الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ، فَلْيَنْتَظِرُوا سَاعَتَهُمُ الْمَضْرُوبَةَ لِفَقْدِهِ ،(٢) وَبِأَنَّهُ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ ظَاهِرَةً عَلَى الْحَقِّ قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ ، إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَيَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ (٣)

وَقَدْ تَمَّ كُلُّ مَا بَشَّرَ بِهِ وَأَنْذَرَ ، وَلَا تَزَالُ آيَاتُ نُبُوَّتِهِ تَتَجَدَّدُ وَتَتَكَرَّرُ ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ قَوْمِهِ ، وَرَسُولًا عَنْ أُمَّتِهِ ، وَصَلَّى اللهُ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ ،(٤) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

---

(١) الاسلام هو الذي شرع للناس شكل الحكومة التي يسمونها الديمقراطية فاقامها الراشدون بالعمل ثم هدمت بالتدريج (٢) اشارة الى حديث أبي هريرة عند البخاري « اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظروا الساعة » (٣) اشارة الى ما ورد في الصحيحين والسنن من الاحاديث كحديث ثوبان « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وحديث المغيرة « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » واللفظان هنا لمسلم وليس في البخاري « على الناس » وفي أحاديث أخرى ذكر عصابة تقاتل على الدين أي على حفظه. وذكر النووي ان الطائفة لا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل يجوز اجتماعهم في قطر أو بلد ويجوز تفرقهم، وذكر ان منهم الفقيه والمحدث والمفسر والمقاتل والقائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر والزاهد والعابد . اي لان اقامة الحق تكون بالعلم بالكتاب والسنة وبثهما وبالعمل بهما وبالدفاع عنه بالحجة وبالقوة (٤) ذكر المباركة هنا مع الصلاة لموافقة الصلاة الابراهيمية المشروعة في الصلوات، والحمد لله على نعمه التي تتم بها الصالحات